

الفصل الثالث

سياسة الإمبراطورية البيزنطية "تجاه جزيرة العرب"

تمت في الفصل الأول دراسة طبيعة الجزيرة العربية، وبنيتها الاقتصادية، وعرف أنه كان فيها منتجات متعددة، وبخاصة في الجنوب، وعلى الشواطئ، وأن هذه المنتجات لا بد من تصريفها، أضف إلى ذلك أن العرب كانوا محتاجين إلى كثير من منتجات البلاد الخارجية، لذا شغلت الجزيرة العربية دوراً هاماً في العالم القديم، فقد زودت المناطق المجاورة لها بالمنتجات المرغوب فيها من حاصلاتها نفسها، واستوردت ما تحتاج إليه من منتجات الشرق الأقصى، وذلك بسبب موقعها الممتاز.

وبحكم هذا الموقع كانت شبه الجزيرة حلقة اتصال في التجارة الدولية بين الأمم التي لا يمكن الاتصال بها إلا عن طريق بلاد العرب، فالحركة التجارية كانت قائمة على قدم وساق، تروح وتغدو بين مناطق البحر المتوسط والشرق الأقصى، وذلك عبر

الطرق التجارية التي تتخللها والمحطات التجارية الهامة فيها، فالقوافل التي تتجه صوب الجنوب لأبد لها من المرور عبر محطات الجزيرة العربية، والسفن التي تمخر عباب البحر باتجاه الشمال، حتما ستعبر من موانئها، ومن أجل ذلك كانت ميداناً للصراع بين الإمبراطوريات الكبرى المهتمة بعالم التجارة كالإمبراطورية البيزنطية، ومن دار في فلكها كدولة الأحباش، وبين الإمبراطورية الفارسية، فكل منهما كانت ترغب في السيطرة على هذا الجزء من العالم. لأن السيطرة عليه كانت تعني التحكم في طرق التجارة التي تمر ببلاده وبالتالي التحكم في تجارة الشرق^(١).

أضف إلى ذلك أنه كانت هذه القوافل التجارية في حاجة إلى من يحفاظ عليها، ويحميها من غارات الأعداء واللصوص، وقطاع الطرق، فاشتدت صلاة العرب بغيرهم من الأمم، وبخاصة الفرس والروم والحبشة، وبالمقابل عمدت الدول الكبرى منذ أقدم العصور إلى ضبط ما تيسر ضبطه من أطراف بلاد العرب الواسعة، وإلى مد نفوذها قدر المستطاع إلى ما نأى من مناطقها الداخلية، وذلك ليس طمعاً في مواردها الطبيعية بقدر ما كان في محاولة للتحكم في مسالك البحار المحيطة بها من الشرق والجنوب والغرب، وفي دروب، القوافل الممتدة عبر أرجائها الوعرة القاحلة^(٢).

وبما أن الإمبراطورية البيزنطية إحدى هذه الدول، كانت سياستها اتخاذ البحار والأراضي التي لا يمكن اجتيازها حدوداً طبيعية تقف عندها أعمال توسعهم، أما الحدود التي تتمتع بالحصانة الطبيعية، فقد دأبوا على حمايتها بالتحالف مع الجيران المطلين عليها^(٣). وذلك ضماناً لمصالحهم التجارية آنذاك.

ومن جهة أخرى، كان من مصلحة العرب التعامل المستمر مع القوى الخارجية الكبرى المطامحة الواحدة تلو الأخرى إلى التحكم في مسالك التجارة عبر هذا الجزء أو ذاك من بلادهم، فلولاء التجارة لكادت سبل العيش في البلاد العربية في حينه أن تقتصر على الرعي، وعلى قدر يسير من الزراعة في بعض النواحي مما لا يكفي كقوام لحضارة ذات شأن يذكر - فالحضارات المحلية القديمة نشأت وازدهرت بين حين وآخر في بعض

(١) شيخو: النصرانية وأدائها 56/1، دلو: جزيرة العرب 222/2

(٢) ابن خرداذبة (أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله) المسالك والممالك - دار المدينة - مطبعة بريل 1889 ص 134، يختصر إلى ابن خرداذبة: المسالك والممالك. وينظر شهاب: فن الملاحة عند العرب ص 39.

(٣) عثمان: الحدود الإسلامية 57/1.

أجزاء الجزيرة العربية، وامتداداتها الشمالية على التجارة^(١)، لذا فقد كانت الجزيرة العربية موضع اهتمام الدول الكبرى.

أ - أسباب الاهتمام بالجزيرة العربية والتجارة عبر أجزائها

اهتم البيزنطيون بأمر التجارة، فالتجارة مورد رزق كبير، ولا سيما مع الأقطار الشرقية، فقد كانت بضائعها مرغوباً فيها في أوربة، ومطلوبة تجني الحكومات منها أرباحاً كثيرة، وفي مطلع قائمة هذه البضائع النفيسة الحرير الصيني الذي كان يرد إلى الإمبراطورية من الصين والهند، وقد ازداد الإقبال عليه بصورة مطردة مع زيادة أسباب الترف، فقد كان يلاقي إقبالاً كبيراً من أثرياء الإمبراطورية ومن أثرياء إمبراطورية روما وبقية أوربا^(٢).

وسعر هذه المادة كان عالياً باهظاً، إلى درجة كبيرة، صار مشكلة من مشكلات الدولة البيزنطية، ولهذا كانت تتصل دوماً بالإمبراطورية الساسانية لمحاولة الاتفاق على تحديد الأسعار، وتعيين الضرائب وذلك بسبب ورود أكثرها من هذه الإمبراطورية إذ كان التجار يأتون بالحرير من أسواق الصين وتنقله القوافل التي تجتاز أرض الدولة الساسانية لتسلمها إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية ومنها إلى العاصمة^(٣). فيستهلك قسم منها محلياً والباقي يحتكر لوقت الحاجة أو يوزع في الأسواق الأوروبية.

وبما أن العلاقات بين الساسانيين والبيزنطيين كانت آنذاك في توتر دائم، فقد شاعت الفوضى، وعم الاضطراب في الحصول على أهم مادة لديها، وصارت هذه التجارة عرضة للفقدان أو للانقطاع، وحيث أن الحاجة إلى الحرير والذهب والبخور كانت تزداد يوماً بعد يوم لدى الإمبراطورية البيزنطية، فقد اضطرت إلى التفكير في الحصول على ذلك عن طريق غير طريق الإمبراطورية الساسانية، لأن تحكّم الساسانيين في مورد مهم

(1) فالبتراء مثلاً كانت أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب وقد شغلت مركزاً خطيراً على طريق القوافل الذي يقطع الصحراء واشتهرت تدمراً أيضاً كدولة تجارية تمر بها قوافل التجارة بين العراق وسورية.

حتى: تاريخ العرب ص 104 - 111

سالم: تاريخ العرب ص 188 - 203

(2) بينز (نورمان) الإمبراطورية البيزنطية تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ط2 القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1957 ص 76-77. يختصر إلى بينز الإمبراطورية البيزنطية. وينظر جواد: المفضل 169/4.

(3) بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص 275، جواد: المفضل 169/4،

من موارد رزق البيزنطيين، جعلها تلتمس طريقاً آخر آمناً بعيداً عن رقابتهم، فلم تجد غير طريق البحر الأحمر^(١)، وبهذا يتضمن الوصول ما تحتاج إليه من الهند والصين إلى البحر الأحمر، ومنه إلى بيزنطة إما براً أو بحراً.

ولضمان ذلك اختط جستانيان خطة مفادها الاتصال المباشر بالأسواق الرئيسية المصدرة، ونقل المشتريات إلى الإمبراطورية بالبحر الأحمر^(٢).

ب - كيفية الحصول على المواد المطلوبة؟

يتم الحصول على المواد المطلوبة بالسيطرة على البحر الأحمر، والدخول منه إلى المحيط الهندي للوصول إلى الهند، وجزيرة سيلان. ولا بد لتحقيق ذلك من اتخاذ قواعد برية وبحرية هناك، أضف إلى ذلك أسواقاً تكون تابعة لها، فبذلك تحصل على هذه المواد، وتربح ربحاً حسناً^(٣)، وتضمن استمرار تأمين هذه المواد بصورة لا تتقطع، فهل حققت ما تريد؟ كان لا يمكن تحقيق السيطرة على هذا البحر وتأمين المواد المطلوبة إلا بعملين: عمل عسكري يعتمد على القوة، وعمل سياسي يتم بالتقرب من الحبشة. فكيف يكون ذلك؟

إن الحبشة على دين النصرانية، لذلك كان من الممكن جلبها إلى البيزنطيين بالتودد إليها باسم الأخوة في الدين، وإرسال المبشرين إلى جزيرة العرب، وبتشجيعهم على المعيشة بين الأعراب، وفي البوادي، لتتصير سادات القبائل، والتأثير عليهم بذلك، وبإقامة الكنائس، وإرسال المال، وعمال البناء لبنائها بأسلوب يؤثر في عقول الوثنيين، فيجعلها

(1) بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص 275، جواد: المفصل 170/4.

عثمان: الحدود الإسلامية 120/1 فرح (نعيم): تاريخ بيزنطة مطبعة طربين دمشق 1978 ص 130
131. يختصر إلى فرح تاريخ بيزنطة.

(2) جواد: المفصل 170/4

مجلة دراسات تاريخية عدد 15 - 16، جامعة دمشق 1984.

"لمحات من تاريخ آيلة" بقلم صالح دراكه ص 71.

(3) bury: history of the later roman empire, 2/318

جواد: تاريخ العرب 287/4

جواد: المفصل 657/2

عثمان: الحدود الإسلامية 120/1

تميل إلى النصرانية، ولتكن هذه المعابد، معاهد تثقف بالثقافة البيزنطية^(١٤)، وبذلك يلحق البيزنطيون ضرراً بالغاً بالفرس، ويكون في استطاعتهم نقل التجارة نحو الغرب عبر جزيرة العرب والبحر الأحمر إلى أسواقهم بكل حرية وأمان^(١٥).

فهل تحقق لها ما أرادت؟

لقد نجحت سياستها هذه نجاحاً أدى إلى غزو الحبشة لليمن بتحريض منها^(١٦). حيث حكم البيزنطيون اليمن بشكل غير مباشر عن طريق مملكة أكسوم^(١٧).

والواقع أن الدبلوماسية الرومية تجاه الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي، وحتى عصر جستنيان، دار محوراً حول المحافظة على المصالح الاقتصادية للإمبراطورية الرومية على ضوء حرمان الفرس للسفن الرومية من الوصول إلى السواحل الغربية للهند، وجزيرة سيلان، وعلى ضوء تحكم الفرس الاقتصادي في تجارة الروم البرية مع الشرق من ناحية ثانية^(١٨)، ونجاح الحبشة في القيام بدور الوسيط التجاري في ميدان الملاحة مع الهند، ونقلهم السلع التجارية إلى ميناء عدول^(١٩)، الذي صار سوقاً عالمياً للسلع التجارية الشرقية والإفريقية من ناحية ثانية^(٢٠).

وعلى ضوء العلاقات الدبلوماسية القوية بين الروم وجنوب البحر الأحمر (الحبشة واليمن) بذل جستنيان جهوداً كبيرة بغية تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية ضد عدوه في الشرق (الفرس).

(1) جواد: المفضل 171/4

(2) جواد: المفضل 171. 170/4

(3) هل: الحضارة العربية ص6

أرياني: نقوش مسندية ص245

شريف: مكة والمدينة ص161

(4) كوبيشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي ص119.

(5) الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ص173

(6) عدول هي التي ذكرها بعض شعراء العرب في الشعر الجاهلي وهي ميناء الحبشة التجاري، وهذا الميناء اندثر ومزال آثاره باقية عند ضواحي ميناء زيلع بالقرب من خليج انسيللي: الشاعر: السياسة الشرقية ص174 حاشية.

(7) حوراني (جورج فضل) العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر مطابع دار الكتاب العربي القاهرة 1958 ص98. 100

والجدير بالذكر أن هدف هذه الدبلوماسية البيزنطية كان توحيد قوى الأكسوميين والحميريين وبدو وسط جزيرة العرب وشمالها لخلق تهديد جانبي لقوات الفرس، وحلفائهم اللخمين^(١٤)، ولكن هذه الدبلوماسية أخفقت في تحقيق الأهداف الاقتصادية المشتركة لهذه القوى، ومرد هذا الإخفاق يعود إلى التنافس الشديد بين التجار الفرس والأحباش، فتجار الفرس كانوا على استعداد تام لشراء كل المحمولات، وبأسعار عالية من ناحية، ولرفض أصحاب السفن التجارية لطلب الحبشة من ناحية ثانية^(١٥)، كانت آنذاك ضئيلة العدد، وبالتالي لا تمتلك الإمكانات الكافية من المقدرة الجيدة ليكون باستطاعتها منافسة القوافل التجارية الفارسية^(١٦).

أضف إلى ذلك ما واجهته الدبلوماسية البيزنطية حيث تمكن أبرهة من الاستيلاء على السلطة باليمن^(١٧).

ففي عهد صارت اليمن تابعة للحبشة من الناحية الاسمية فقط، وهي في الواقع شبه مستقلة عن الحبشة، وأمام هذا الموقف حاولت الدبلوماسية البيزنطية الزج بأبرهة في حلبة الصراع الفارسي البيزنطي، فباعت جهودها بالإخفاق، بالرغم من الوعود العديدة التي قطعها أبرهة على نفسه للإمبراطور جستنيان^(١٨).

ألم يغزو مكة بتحريض منها بغية السيطرة على المنطقة الغربية من جزيرة العرب، والاتصال بملك الروم وتهديد الفرس^٩.

وعلى ذلك لم يعد أمام السياسة البيزنطية بالنسبة لليمن في عهد أبرهة سوى العمل على استمالته للمحافظة على أمن طريق التجارة وسلامته بين اليمن والشام باعتباره سيطر على أهم جزء من الجزيرة العربية في وقت اشتدت فيه الصراعات السياسية والاقتصادية بين الفرس والروم، وتولت هي تأمين الجزء الشمالي لطريق القوافل.

(١) يختصر إلى حوراني: العرب والملاحة وينظر الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية 174.

(٢) كويشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي ص 96

(٣) كويشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي ص 96- 97

(٤) ينظر فيما بعد من هذا الفصل

(٥) كويشانوف: الشمال الشرقي الإفريقي ص 136.

جواد: المفضل 492/3.

الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ص 180.

ج - اتخاذ القوى البيزنطية قواعدها

سخر البيزنطيون كل قواهم للهيمنة على جزيرة العرب، وأبعدوها عن الفرس، وعن الطامعين فيها على الأقل، حيث كان آنذاك صراع سياسي اقتصادي ديني ومتعدد الأطراف ظهر فيه البيزنطيون والفرس والأحباش واليمنيون ووجود وفاق أو خلاف بين هؤلاء الأطراف كان أمراً يخضع لكثير من التغير من ظرف إلى ظرف، ومن هنا، فإن احتكاكاً أو اتصالاً بين ملك اليمن، وملك الحيرة، كان أمراً وارداً^(١٤).

أضف إلى ذلك، اتخذ البيزنطيون قواعد برية وبحرية لتحقيق ما اختطوه، فميناء القلزم، ويقع على مقربة من السويس، كان يقيم به الوكيل التجاري لمراقبة سير السفن والتجارة، ووضع التعليمات لتنظيم التجارة البحرية^(١٥).

وكان عدولي كما ذكر من أهم مراكز التبادل التجارية بين الإمبراطورية البيزنطية وبلاد المحيط الهندي، يصل التجار منه إلى أسواق الحبشة الداخلية أو إلى موانئ سقطرى التي كانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر^(١٦).

أما ميناء أيلة، فقد كان في أيدي البيزنطيين، وكان موضعاً لتفريغ السفن المحملة بالبضائع المرسلة من الهند إلى فلسطين، وبلاد الشام^(١٧).

أما جزيرة أيوتابا التي تعرف بتاران أو تيران^(١٨) وسكانها قوم يعرفون ببني جذان^(١٩)،

(١) يحيى: العرب في العصور القديمة 151 - 152.

(2) bury ; history of the later roman empire, 2/318

جواد: تاريخ العرب 87/4.

جواد: المفضل 657/2، عثمان: الحدود الإسلامية 120/1

(3) حوراني: العرب والملاحه ص 98 - 100

الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ص 147

(4) جواد: المفضل 657/2

(5) تاران أو تيران يعني نوعاً من طيور البحر. موصل: شمال الحجاز 112 وهذه الجزيرة هي نفسها جزيرة طيور البحر أو عجل البحر.

موصل: شمال الحجاز ص 12

(6) ياقوت: معجم البلدان مادة تاران يقول ياقوت ما بين القلزم وإيلة مكان يعرف بتاران ياقوت: معجم البلدان مادة قلزم.

فقد كانت مركزاً مهماً لجمع الضرائب من السفن القادمة من الهند^(٤٤)، وكان موقعها مهماً، فهي ملتقى الطرق البحرية والبرية، حيث كانت في أيدي بعض رؤساء القبائل^(٤٥).
وأما ما وقع بعد هذه المنطقة حتى مضيق باب المندب، والمحيط الهندي، فلم يكن للبيزنطيين عليه نفوذ^(٤٦).

د - بزنطة وعلاقتها بمكة

استغل أهل مكة الوضع السيئ الذي طرأ على اليمن بدخول الحبش إليها، ومن تردي الأوضاع السياسية فيها، والاضطرابات المستمرة التي وقعت بتصادم الوطنيين، والغزاة الاحباش، فاضمحل كل نفوذ سياسي أو عسكري، كان لحكومات اليمن في الحجاز، أو على الأقل على بعض القبائل وقاموا بمهمة الوسيط، وفي الوقت نفسه وجدت قريش نفسها حرة مستقلة، وفي وضع يمكنها من ممارسة التجارة، فقامت بنقل تجارة بلاد الشام وحوض البحر المتوسط إلى الحجاز، وبنقل تجارة بلاد اليمن إلى أسواق فلسطين، وبذلك حصلت على ارباح طائلة جعلتها من أغنى العرب عند ظهور الاسلام، وصيرت مكة مركزاً خطيراً من مراكز الثروة والمال في جزيرة العرب في ذلك الحين، حيث أصبحت جسراً ربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب^(٤٧).

وبدا واضحاً أن ارسنقراطية قريش جمعت ممارساتها الطويلة، وتنوع صلاتها الخارجية ميزتين: الاطلاع الدقيق على شؤون الصراع السياسي بين الفرس والروم، والحس المرفه بحدود الموقع الذي تقف فيه بين المتصارعين لتحفظ بمصالحها التجارية لدى كل منهما كاملة، فكانت خبرات تجارية، ودبلوماسية وسياسية، دفعها لاتخاذ موقف سياسي اسماء بعض الباحثين المحدثين "الحياة"^(٤٨) أي الابتعاد عن استخدام القوة

(1) بينز: الامبراطورية البيزنطية ص 282، جواد: المفضل 4/170

(2) جواد: المفضل 4/170. جواد تاريخ العرب 388/4

(3) جواد: المفضل 4/170.

جواد: تاريخ العرب 388/4

(4) سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص 341، دلو: جزيرة العرب 1/130.

(5) شريف - مكة والمدينة ص 92 - 141.

الدوري: (عبد العزيز) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت 1968 ص 11، يختصر إلى الدوري مقدمة في التاريخ الاقتصادي، سالم: تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص 357. جواد: تاريخ العرب

كوسيلة لحل المشكلات المتنازع عليها، واللجوء إلى المفاوضات السلمية، وإقامة علاقات ودية أو حسنة، أو على الأقل تطبيع علاقات مكة مع أمراء العرب، والحكومات الأجنبية، وعدم التورط في الانضمام إلى معسكر الساسانيين، أو معسكر البيزنطيين الذين كانوا يتنازعان السيطرة على المنطقة العربية.

لقد أعانهم على اتخاذ موقف الحياد، رغبة المعسكرين في وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية، وبعد مكة، وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى، ومع ذلك فلم تسلم مكة من محاولة السيطرة عليها محاولات حربية وسياسية باءت بالإخفاق^(١) بفعل عوامل خارجة عن قدرة المكين مرة، وبإصرار رجال مكة على حيادهم وأطمئنانهم إلى موقعهم مرة أخرى.

كان هذا الموقف من مصلحتهم، فقد انفتحت مكة على رحاب الجزيرة، والعالم الخارجي، وتدل الأخبار التي تتحدث عن علاقاتهم الحسنة مع الروم والفرس، على أن هذه العلاقات، كانت خاضعة للتنظيم بالفعل، فليس من باب العفوية مثلاً أن "كانت القوافل التي تذهب من بلاد العرب إلى بلاد الشام، تنزل في أسواق معينة حددتها لهم الحكومة البيزنطية، لتحصل منهم على الضرائب المفروضة، ولتراقب الأجانب الذين يقدمون بلادها، وكانت هذه القوافل أول ما تنزل في البلاد الرومية تنزل في أيلة، وهي المعروفة اليوم بالعقبة، ومنها تذهب إلى غزة، وهناك تتصل بتجار البحر الأبيض المتوسط، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بصرى^(٢)". بل لابد أن يكون مثل هذا التحديد، نتيجة لاتفاقات رسمية معقودة بين أصحاب هذه القوافل، أو من يمثلهم من زعامة قریش، وبين

204/4.

دلو: جزيرة العرب 133/1 - 134.

(1) ابن هشام: السيرة 45/1 وما بعد

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 131/2

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 442/1، النويري: نهاية الأرب 306/15

ابن كثير: البداية والنهاية 212/2. نافع: عصر ما قبل الإسلام ص 8

(2) أمين (أحمد) فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية ط 9، 1964، ص 15 يختصر إلى أمين: فجر الإسلام.

وينظر شريف: مكة والمدينة ص 207.

حويي (أحمد محمد) الحياة العربية - دار القلم - بيروت ط 4، 1962، ص 99 يختصر إلى حويي: الحياة العربية.

الحكومة البيزنطية، أو من يمثلها في بلاد الشام وفلسطين. ولعل الدافع لعقد هذه الاتفاقات ترضية سادات العربية الغربية، لضمان سلامة التجارة عند تعسف الساسانيين بالتجارة البرية.

وربما كان هذا منبعاً من عدم اطمئنان البيزنطيين لحياة زعامة مكة حيال الصراع السياسي بينهم، وبين الساسانيين حتى ليستظهر بعض المؤرخين الغربيين، أنه كان في مكة بيوت تجارية رومية تزاوّل التجارة للروم، كما كان فيها أحباش يرعون مصانع قومهم^(١). " فلا يستبعد أن يكون من بين تجار الروم في مكة من كان عيناً للبيزنطيين على العرب، يتجسس لهم ويتسقط أخبارهم، ويكتب إليهم عن صلات العرب بالساسانيين، وعن أخبار هؤلاء في الجزيرة العربية، واتصالاتهم بالقبائل، وأهل الجزيرة لحاجة الروم إلى تلك المعلومات بهدف إفساد خطط الفرس الساسانيين، وإبعادهم عن بلاد العرب وعن البحار^(٢).

وقد يكون من وراء عقد الاتفاقات مع العرب تحصيل الضرائب منهم المفروضة على الصادرات، ومن ثم التطلع إلى مد السلطان للعربية الغربية، وجعلها تحت سيطرتهم، وبما أن تبادل السلع التجارية كانت تحت سيطرتهم، ويتم في المراكز الحدودية مثل قلزم في

(١) أمين: فجر الاسلام ص 15

حوي: الحياة العربية ص 10

O LEARY, (DELACAY), ARABIA DEFORE MUHAMMED, LONDON (2)
1927,P.184,BRIEF O LEARY

وينظر جواد: تاريخ العرب 201/4

عوض الله: مكة ص 131 حاشية.

مروة (حسين) النزعات المادية - دار الفارابي - بيروت 1978 ح 1 ص 206 يختصر إلى مروة: النزعات المادية.

دلو: جزيرة العرب 136/1 - 137

تذكر المصادر العربية من بين تجار الروم الذين أقاموا في مكة شخصيات عرفت أنها موال لبعض زعماء قريش أمثال صهيب الرومي الذي كان مولى لعبد الله بن جدعان ثم صار من أثرياء مكة، وقد اسلم فيما بعد، وصار من موالي النبي (ص).

ابن هشام/السيرة / 280/1

ضعيف: العصر الجاهلي ص 50

رفاعي: الإسلام في حضارته 5/1

مصر، وغزة في فلسطين وبصرى في جنوب سورية، فقد كان للحجاز، ومكة لدى بيزنطة أهمية خاصة إذ بها كانت تمر حركة التبادل التجاري كما ذكر، وهذا ما جذبها للسيطرة عليها^(١)، فحرضت الأحباش، وسار أبرهة إلى مكة بحملة سميت حملة الفيل، فلو تحقق هذا المشروع لكان الجزء الغربي من جزيرة العرب تحت سيطرة البيزنطيين، ولكن أحلام بيزنطة اخفقت ولم تحقق ما حلمت به^(٢).

هـ - بيزنطة والقبائل العربية

شغلت القبائل العربية منذ القرن الرابع الميلادي وضعا فريداً على حدود الإمبراطورية الرومية الشرقية، ذلك أن دورها كدولة عازلة تفصل بين الدولتين بالشرق الأدنى، أي بيزنطة وإيران لم يكن قد تحدد بعد.

غير أن مشاركة هذه القبائل في الحروب الدائرة بين هاتين الدولتين وموافقتها على مد يد العون، أو رفضها لهذا الطرف أو ذاك، كل هذا خلق ضرباً من التعاون لم تلبث أن ظهرت أبعاده بصورة متكاملة فيما بعد، عندما احتلت دولتا الغساسنة واللخميّين مكانتهما التي تجلت بوضوح في القرنين الخامس والسادس.

والجدير بالذكر أن القبائل العربية، استغلت الضعف الذي ظهر على الحكومة السلوقية منذ القرن الثاني قبل الميلاد^(٣)، وأخذت تزحف نحو الشمال وتهدد المدن القريبة من البوادي، وتحاول الاستيلاء عليها، وقد تمكنت من الاستيلاء على بعضها، وكونت حكومات يمكن أن يطلق على كل منها اسم مشيخة، أو إمارة حسب التسمية الحديثة للكلمة، إلا أن هذه المشيخات كانت قصيرة العمر، وكان حجمها يتوسع، أو يتقلص

(1) نيكيتا: الشرق الإسلامي ص 54-55

(2) ابن هشام: السيرة النبوية 45/1 وما بعد،

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 131/2.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ 442/1.

النويري: نهاية الأرب 306/15.

ابن كثير: البداية والنهاية 212/2.

نافع: عصر ما قبل الإسلام ص 87.

(3) جواد: المفصل 604/2

بسرعة، لأن قوتها بقوة حكامها^(١).

فكيف كانت بيزنطة تتعامل مع القبائل العربية؟

1- سياسة بيزنطة مع القبائل العربية

كانت القوة ضرورية مع القبائل العربية، وكانت الصرامة لازمة تجاههم لكبح جماحهم، والحد من غلواء غزوهم للحدود وللحواضر، والمصادر البيزنطية للقرنين الرابع والخامس. تعكس اتجاهين سياسيين للإمبراطورية فيما يتصل بالعرب، أما أحدهما فيهدف إلى إخضاعهم، وربطهم بمعاهدات تتم إما عن طريق القوة أو بالطرق الدبلوماسية، وأما الاتجاه الآخر فهو صيغهم بحضارتها، وعلى وجه خاص إدخالهم في عقيدتها النصرانية^(٢)، فالتساهل معهم معناه في نظر الأعراب وجود ضعف في تلك الحكومات، وأن معنى ذلك طلب المزيد.

لقد اعتبرت بيزنطة، أنه من الحماسة محاربة الأعرابي في دياره لأنه أعلم من الحضري بالبادية، ومن الخير مدهنته، واسترضائه، وذلك بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء، أصحاب الشخصيات والمواهب، ودفع هبات مالية سنوية لهم ترضيهم^(٣) في مقابل ضبط الحدود، وحمايتهم من خطر مهاجمة الأعراب لها، وغاراتهم عليها، مهما كان أصل أولئك الأعراب. والاشتراك مع أولئك الحكام المتحالفين معها في حروبهم لأعدائهم، بتقديم الخدمات الضرورية اللازمة لهم في الحروب، مثل تقديم الجمال لهم لحمل الجنود، والأثقال، والماء، وكل ما يحتاج إليه الجيش في عبوره إلى البوادي^(٤).

وتقرن الجعالات السنوية بهدايا وألطاف يقدمها الحكام إلى سادات الأعراب، وبألقاب مشرفة، تبهج النفوس الضعيفة، لاستوائهم إلى جانبهم، وبدعوات توجه إليهم في المناسبات لزيارة أولئك الحكام، والنزول في ضيافتهم، فتستغل الوضع وتخلع عليهم الخلع

(1) جواد- المفضل 2/600

(2) بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 60 - 61

(3) بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 53.

الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية 162

(4) جواد: المفضل 2/603

التي تستويهم^(٤٤)، وبذلك تكسبهم إلى جانب أولئك الحكام^(٤٥) عندما تشتد الأزمات، أو على الأقل إن لم يشاركوا معها فهي تضمن ولائهم، ولم يخف على الأعراب ذلك، فاستغلوا أهمية الطرق البرية التي كانت تمر بالبوادي، والتي عدت شرايين التجارة العالمية آنذاك، فتحكموا في مسالكها، وأخذوا يعاملون الحكومات وفقاً لحاجتها إلى هذه الطرق، فيجبرونها على تقديم أحسن الترضيات لهم لتقديم خدماتهم والانضمام إليهم، وإلا أضربوا عن الحراسة، وأثاروا الأعراب عليهم، وهاجموا هم أنفسهم تلك الحدود، حتى تجاب مطالبهم أو يسترضوا، وعندئذ يقبلون بالعودة إلى عملهم^(٤٦)، لذا فقد أقامت بيزنطة مراكز محصنة على طرق الصحارى زودتها بحاميات قوية ذات بأس، ولها علم بالبادية، ومواقعها، ودروبها، ومعها ما تحتاج إليه من الميرة والماء^(٤٧).

2- صداقات بيزنطة مع رؤساء العرب

اتخذت بيزنطة صداقات متعددة في بلاد العرب بهدف إقامة توازن مع إمارة الحيرة من ناحية، ولتأمين شر هذه القبائل ذاتها من ناحية أخرى، ولتعمل هذه القبائل على منع الغارات الخاطفة التي اعتادت عليها قبائل البدو الرحل.

فالأمراء الضجاجة^(٤٨)، كانوا تحت حماية الدولة البيزنطية، واليهيهم يعود حكم الأراضي الواقعة على الحدود السورية، فقد نجح الروم في كسبهم إلى صفهم في أواخر القرن الرابع الميلادي^(٤٩).

ومع مرور الزمن أخذ الغساسنة يستولون على الأراضي التي كانت تابعة للضجاجة^(٥٠). وما جاء النصف الثاني من القرن الخامس حتى كانت سيطرة الغساسنة

(1) نولدكه (ثيودور)، أمراء غسان، ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق المطبعة الكاثوليكية بيروت 1933 ص 13 يختصر إلى نولدكه، أمراء غسان.

(2) جواد: المفضل 603/2. الشاعر: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ص 162

(3) جواد: المفضل 603/2

(4) جواد: المفضل 602/2. عثمان: الحدود الإسلامية 57/1

(5) ينسب الضجاجة إلى سليج بن حلوان بن ضجعم وهم النين دحرم الغساسنة وفرضوا سيادتهم عليهم ابن خلدون: العبر 278/2.

(6) نولدكه: أمراء غسان ص 6

(7) تاريخ اليعقوبي 207/1

ابن خلدون: العبر 279/2، نولدكه: أمراء غسان ص 6، باشميل (محمد أحمد) العرب في الشام قبل

تامة على هذه المناطق، على أن شهرة الفساسنة بدأت في عهد الحارث بن جبلة الذي كان عاملاً للروم^(١٤)، ومعاصراً للإمبراطور جستنيان، وقد مارس جهوداً عسكرية، وديبلوماسية، ودينية طوال عصر جستنيان فمنحه ألقاباً لم يحظ بها شيخ عربي من قبل طوال التعامل مع الروم، وعين أميراً على جميع قبائل العرب في سورية^(١٥). وكان غرض جستنيان من ذلك "أن يقيم خصماً قوياً في وجه المنذر ملك عرب الفرس^(١٦)".

ولقد عقد الحارث بن عمرو الكندي حلفاً مع بيزنطية، يساعدها بموجبه في حروبها ضد الفرس واللخميين في الحيرة، وقد وجدت كندة تحت حكمها عدة قبائل من وسط الجزيرة^(١٧) وكان لها ملك بالحجاز واليمن^(١٨).

والجدير بالذكر أن العرب الذين انتشروا على حدود الحجاز الشمالية كانوا موالين للبيزنطيين وهم جذام، وبلي، وعذرة وبهراء، وكلب، ولخم، ومجموعة القبائل القضاعية^(١٩)، حيث اعتبرت قضاة صنيعة الروم^(٢٠).

أضف إلى ذلك أنه كانت للقيصر جستنيان صداقة مع رئيس اسمه أبو كرب، يقع ملكه في أعالي الحجاز^(٢١)، وفي المناطق الجنوبية من فلسطين عرف هذا الرئيس بالحزم والعزم، فخافه الأعداء، واحترمه الأتباع، واتسع ملكه، وتوسع سلطانه حتى شمل مناطق واسعة، ودخلت في تبعيته قبائل عديدة أخرى، على القانون الطبيعي في البادية الذي يحتم دخول القبائل طوعاً، وكرهاً في تبعية الرئيس القوي.

أراد هذا الرئيس أن يتقرب إلى القيصر، وأن يبالي في تقربه إليه، وفي إكرامه له،

الإسلام- دار الفكر ط2، 1987 ص178 يختصر إلى باشميل العرب في الشام.

(1) نولدكه: أمراء غسان ص9، جميلي: محاضرات 125

(2) نولدكه: أمراء غسان ص12، ضيف: العصر الجاهلي ص41

(3) نولدكه: أمراء غسان ص11

(4) موسكاتي: الحضارات السامية ص204

(5) قلقشندي: قلاند الجمان ص72

(6) ابن خلدون: العبر 2/247 وما بعد، عثمان: الحدود الإسلامية 1/71

(7) ابن خلدون: العبر 2/247، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي ص88.

(8) ابن هشام: السيرة 1/21

الطبري: تاريخ الرسل والملوك 2/108

الشاعر: السياسة الشرقية ص18

فنزل له عن أرض ذات نخيل كثير عرفت عند الروم بواحة النخيل، أو غابة النخيل، وهي أرض بعيدة، لا تبلغ إلا بعد مسيرة عشرة أيام في أرض قفرة، فقبل القيصصر هذه الهدية الرمزية^(٤٦) على الرغم من أنه كان يعلم عدم فائدتها له، وأضافها إلى أملاكه، وعين هذا الشيخ عاملاً فيلاً رخاً على عرب فلسطين^(٤٧)، وقد استطاع هذا بدوره السيطرة على واحتى تبوك وتيماء^(٤٨).

وأبو كرب هذا من المعاصرين للحارث بن جبلة ملك الغساسنة، وقد كان حكمه قبل عام 542م بدليل إرساله رسولاً إلى أبرهة لتهنئته عندما رمم سد مأرب الذي أنجز في هذه السنة^(٤٩).

هذه الأرض التي حكمها أبو كرب هي الأرض التي حكمها امرؤ القيس من قبل فقد كان له ملك في العراق والحجاز والجزيرة^(٥٠)، وكذلك كانت له صلات حسنة بالروم وقد كان في الأصل من عرب المناطق الخاضعة للفرس^(٥١)، ثم هجر دياره لسبب غير معروف إلى الأرض الخاضعة لنفوذ الروم، وأخذ يغزو الأعراب حتى هابته القبائل، فتوسع نفوذه حتى بلغ البحر الأحمر، وامتد إلى العربية الصخرية حيث تمكن في بداية القرن الرابع الميلادي من تثبيت سلطانه على قبائل أسد (أزد) ونزار ومذحج، ومعد. يذكر نقش يعرف باسم نقش النمارة يعود تاريخه لسنة 328م^(٥٢) بأن هذا الملك قد وضع فرقة من

(1) موسل: شمال الحجاز ص121، جواد: تاريخ العرب 294/4

(2) جواد: المفصل 658/2، جواد: المفصل 174/4.

(3) الشاعر: السياسة الشرقية ص180

(4) شيخو: النصرانية وآدابها 63/1، جواد: تاريخ العرب 202/3.

عابدين بين الحبشة والعرب ص61.

(5) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 61/2، جواد: المفصل 194/3، الحوي: الحياة العربية 111، فرعون: السياسة الساسانية ص46.

(6) الطبري: تاريخ الرسل والملوك 61/2، موسل: شمال الحجاز ص119، جواد: المفصل 654/2، عثمان: الحدود الإسلامية 121/1، بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص461.

(7) ديسو: العرب في سورية 34/33، ينظر الملحق رقم (9).

عابدين: بين الحبشة والعرب ص35.

بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص44.

بافقيه: في تاريخ اليمن ص150.

علي حسن: التاريخ الإسلامي ص71.

جنوده تحت تصرف الروم^(٤٦)، وفي هذا دليل على اعتراف الروم بسلطانه، أضف إلى ذلك، قبره الذي أقيم في النمار في إقليم كان تابعاً للروم^(٤٧).

استولى امرؤ القيس على جزيرة ايوتابا^(٤٨) "تاران الحالية" التي جعلها "موقعها الجغرافي ملتقى الطرق البحرية والبرية، حيث تقع إلى الجنوب من شبه جزيرة سيناء عند مدخل خليج العقبة (أيلة)، وبفضل هذا الموقع الجغرافي، شغلت كل من جزيرة تيران، وميناء أيلة دوراً هاماً في سياسة أباطرة بيزنطة، ودولة أكسوم الحبشية، وإيران، والقبائل العربية بالشام، والمستوطنات اليهودية بالجزيرة العربية^(٤٩)".

ترك امرؤ القيس رجاله في هذه الجزيرة، يجبون الضرائب من السفن القادمة من الهند فحصل بذلك على ثروة كبيرة^(٥٠)، وعزم في سنة 473م على إرسال الأسقف بطرس، أسقف الأعراب التابعين له إلى القسطنطينية ليتصل بالقيصر، وليتوسط لديه هناك أن يوافق على تعيينه عاملاً على الأعراب المقيمين في العربية الحجرية، والخاضعين لنفوذ الروم، مقابل دخوله في حلف معهم، فاستجاب القيصر ليو إلى طلب بطرس، فأرسل بدعوة إلى امرؤ القيس لزيارة القسطنطينية، ولما وصل رحب البيزنطيون به ترحيباً جميلاً، ومنح لقب فيلارخ^(٥١). ولم يعد خافياً أن الإمبراطور ليو قد تيقن من أهمية منطقة البادية كحزام على الحدود، ومن ضرورة استتباب الأمن والسلام على تخوم الإمبراطورية وأخيراً من أهمية موقع أيوتابا والبحيرا، لذا فقد رأى من الأحزم أن ينهج نهجاً سلمياً مع الفيلارخ الذي كان في استطاعته أن يقدم الكثير من الخدمات حتى وإن كان المقابل

(1) عاقل: العصر الجاهلي ص 155 0

بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 40 - 41

(2) ديسو: العرب في سورية ص 36.

(3) موصل: شمال الحجاز ص 119.

(4) بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران 70 - 71.

(5) بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 70 - 71.

(6) موصل: شمال الحجاز ص 119،

جواد: تاريخ العرب 266/3 - 267.

جواد: تاريخ العرب 594/4 - 595.

جواد: المفضل 654/2 - 655.

بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 72 - 73.

عثمان: الحدود الإسلامية 121/1

لذلك حرمان الخزائن من دخل مكوس جزيرة أيوتابا ، ولم تعد جزيرة أيوتابا إلى يد الروم إلا في عهد القيصر انسطاس الذي انتقل الحكم له حوالي 491 م^(٤٤)، فحوالي عام 498 م زحف رومانوس إليها ، دوكس قائد جند فلسطين ، وأسر حجر الكندي واحتل من جديد جزيرة أيوتابا منتزعا إياها من الكنديين^(٤٥).

والجدير بالذكر أن المصادر صمتت عن ذكر الوقت الذي تنصر فيه امرؤ القيس ، وعن الوقت الذي أنشأ فيه ديوان الضرائب بهذه الجزيرة ، إلا أنه يمكن الاستدلال من الأحداث السالفة على ضعف السياسة البيزنطية إزاء القبائل العربية مما شجع امرؤ القيس على مد يده على مناطق واسعة ، ومن ثم يمنح لقب فيلارخ الاعتراف به رسمياً زعيماً أو رئيساً للقبائل - فامرؤ القيس هذا ، هو مثل واحد من أمثلة عديدة عن سادات قبائل راجعوا البيزنطيين لاستمداد العون منهم وللحصول منهم على اعتراف رسمي بتتصيبهم رؤساء على الأعراب النازلين في ديار خاضعة لسلطانهم ، أو لمساعدتهم في مقارعة عرب الحيرة أو الفرس ، والظاهر أن مثل هذا الاعتراف ، كان يكسب الرئيس قوة ، ويمنحه منزلة ومكانة في تلك الأيام ، حتى وإن كان الروم على مسافة غير قريبة من الرئيس ، وليس لهم حول مادي يقدمونه إليه.

3- قضية عثمان بن الحويرث

كانت لأهل الحجاز ، ولاسيما مكة علاقة اقتصادية مع الروم ، وعلى هذه العلاقة كانت تتوقف العلاقات السياسية في غالب الأحيان ، ولا شك أن حملة أبرهة كانت إحدى هذه المحاولات العسكرية كما سبق ذكره.

فقد كانت هناك محاولة سياسية أخرى مع العرب هي محاولة تمليك سيد من العرب على مكة ، يدين بالولاء لدولة الروم ، فارتضى قيصر ملك مكة رجلاً من ساداتها هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى القرشي^(٤٦) ، ذكر أهل الأخبار: أن عثمان بن

(1) runciman: byzantine civilisation, london, 1959,p.301.

brief: runciman,byzantine civilition

وينظر موسل: شما لالحجاز ص120- 121.

(2) بيغولفسكيا: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص73.

عثمان: الحدود الاسلامية 121/1.

(3) ابن حبيب: المنمق ص54.

عوض الله: مكة في عصر ما قبل الاسلام ص133

الحویرث، كان من الهجائين في قريش، ومن العالمين بأخبار رجالها، رأى حاجة قريش إلى بلاد قيصر ومتجرهم إليهم، فخرج إلى قيصر^(١)، وذكر له مكة، ورغبه بها، وقال: يكون زيادة في ملكك، كما ملك كسرى صنعاء، فكتب له كتاباً إلى قريش بالملك، وفي بعض الروايات، ختم الكتاب بذهب^(٢)، وحمله على بغلة بسرج مذهب، فأتى قريشاً وقال:

"يا قوم إن قيصر قد علمتم مكانكم ببلاد، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما أخذ من أحدكم الجراب من القرط، والعكة من السمن، والإهاب فأجمع ذلك ثم أذهب إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به، وينقطع مرفقكم منه^(٣)"، فخافوا قيصر، وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم، فأجمعوا أن يعقدوا على رأسه التاج عشية، وفارقوه على ذلك، فصاح ابن عمه أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزي بن قصي^(٤)، وقريش على أحفل ما كان عليه في الطواف:

يا عباد الله "ملك بتهامة ألا إن قريشاً لقاح لا تملك ولا تملك^(٥)" وبذلك لم يتحقق حلم عثمان بن الحویرث^(٦).

(١) ابن حبيب: المنقح ص 54، عوض الله: مكة في عصر ما قبل الإسلام ص 133

(٢) الزبير (عبد الله بن المصعب) نسب قريش - دار المعارف ط 3، 1951 ص 210 يختصر إلى الزبير: نسب قريش

(٣) ابن حبيب: المحبر ص 171.

عوض الله: مكة في عهد ما قبل الإسلام 133.

شريف: مكة والمدينة 162

(٤) ابن حزم الأندلسي (أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر 1962 ح 1 ص 118 يختصر إلى ابن حزم: الجمهرة. الجارم (محمد نعمان) أديان العرب في الجاهلية مطبعة السعادة بمصر ط 1923 ص 18 يختصر إلى الجارم: أديان العرب.

(٥) الزبير: نسب قريش ص 210، الفاسي: شفاء الغرام 171/2 - 172.

ابن رسته: الأعلام النفيسة ص 58. الجارم: أديان العرب ص 18

مجلة دراسات تاريخية العدد (11) عام 1983، مقالة بقلم صالح دراركة ص 28

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية 234/1. ابن حبيب: المحبر 171، ابن حبيب: المنقح 152 وما بعد. السهلي: الروض الأنف 146/1، الحلي: (هبة الله) المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة - تحقيق صالح موسى دراركة، ومحمد عبد القادر خريسات، الجامعة الأردنية ط 1. 1984 ح 1 ص 64 وما بعد يختصر

قد يبدو الأمر غريباً أن يملك قيصر رجلاً على مكة، وليس للبيزنطيين نفوذ على هذه الجهات، فإن نفوذهم الفعلي لم يتجاوز في وقت من الأوقات أعالي الحجاز، ومن ناحية أخرى فكيف وصل عثمان إلى قيصر وقابله في القسطنطينية مع العلم أن الروم قد عينوا بعض الأماكن في بلاد الشام لا يمكن لعربي تجاوزها⁵، ومن ثم فبأي لغة تكلم عثمان مع القيصر⁶، وما هي إمكانيات عثمان المعنوية حتى يتوصل إلى ذلك⁷.

لو أخذ بعين الاعتبار أن عثمان تاجر، والتاجر يجوب أنحاء العالم وله طريقة خاصة في التفاهم مع الآخرين، ولكن الروم عينوا حتى للتجار بعض المواضع فلا يستطيع التاجر أن يتجاوز أكثر من بصرى في سفرته.

من الممكن أن عثمان في تجارته قابل بعض حكام بلاد الشام، وتفاهم معه بطريقة أو أخرى، وهذا الحاكم أخبر القيصر، وأخذ منه اعترافاً بتمليك عثمان أو أن هذا الحاكم اعتبرته الروايات قيصر.

ثم أن الرواية تذكر أن عثمان رغب قيصر بمكة وذكرها له وقال:

"يكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاً" فهل كان خافياً على قيصر مكة، وهو الذي حرض الحبشة على الاستيلاء على اليمن وغزو مكة رغبة منه بالاستيلاء على المنطقة الغربية من الجزيرة، والاتصال بملكه في بلاد الشام، وبالتالي التحكم في منافذ البحر الأحمر لتمرير تجارة بيزنطة ولكن باءت محاولته بالإخفاق، والآن فبدلاً من غزوها من الجنوب يمكن تحقيق ذلك بالاستيلاء عليها من الشمال وبالطريقة الدبلوماسية مع عثمان. يبدو أن بالأمر بعض الريبة عجزت المصادر المتوفرة عن ذكره، أو التوصل إليه.

وبالمقابل فإن حصول عثمان أو غير عثمان على براءات وأوراق اعتراف من الروم بملك سيد على قبيلة، أو أرض ليس للروم عليها سلطان، فقد كان حصول المشايخ والأمراء على أمثال هذه الأوراق، وبراءات الاعتراف، نوعاً من أنواع الإكرام، والتقدير الأدبي،

الحلي المناقب. الفاسي: شفاء الغرام 171/2-172، شيخو: النصرانية وآدابها 120/1-121 كستر (م.ج) الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، ترجمة يحيى الجبوري جامعة بغداد 1976 ص21، يختصر إلى كستر الحيرة ومكة: جواد: المفصل 40/4-92-94. جواد: تاريخ العرب 377/5.

العلي: محاضرات ص79-95

شريف: مكة والمدينة ص161

يكسب حاملها قوة معنوية، وتجعله من جملة أصدقاء الروم، وحلفائهم، والحائزين على تقديرهم، ومنحهم، وقد كان الروم يشجعون هذا النوع من التودد السياسي لكسب العرب، وجرحهم إلى جانبهم، إذ به يتمكنون من بسط نفوذهم على القبائل^(١).

وهذه المحاولة السياسية، هدفها كما هو ظاهر مثل هدف المحاولة العسكرية التي قامت بها الحبشة على مكة فيما سبق. ولكن باءت هذه المحاولة كما سبق القول بالإخفاق كسابقتها، ولم يجد عثمان من يوافقه على خطته من أهل مكة، ورأى أشرافها أنه ليس من مصلحة بلدهم أن يرتبط ارتباطاً خاصاً بأي من المعسكرين المتعادين في هذه الأوقات التي وصل فيها الصراع بين الدولتين إلى مرحلة حادة، مما يبرز أهمية الحياد، وقد كان أهل مكة، يرون الغلب في هذه المرحلة معقوداً لفارس على الروم، ويعتقدون أن النتيجة النهائية ستكون في مصلحتها^(٢).

قد شجعهم على معارضة هذا الاتجاه الرومي، اطمئنانهم إلى بعد بلدهم عن متناول الروم، وقوة مركزهم، إزاء حاجة البيزنطيين للبضائع التي كانوا يحملونها، ولم يترتب على رفض العروض البيزنطية أي نتائج خطيرة، بالنسبة لمكة، باستثناء السجن المؤقت لبعض الرجال^(٣).

على أن العلاقات التجارية استمرت بعد ذلك في حالة طيبة، بل إن تجارة مكة ازدادت نشاطاً واتساعاً بعد ذلك إلى أن كانت الهجرة النبوية إلى يثرب.

يستخلص من كل ما تقدم أن بيزنطة أقامت سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للمحافظة على الحدود، واستعانت بالقبائل الضاربة في البادية على أعمال الحراسة، والدفاع، ولم تشأ التورط في محاولات توسعية عقيمة، بل دعمت سلسلة الحصون في الصحراء الشامية، ثم جعلت سورية، وفلسطين ولاية واحدة، وهي الولاية المشرقية، وكانت هذه الحصون أشبه بالمعسكرات تقيم بها فرق الجيش التي تحرس الحدود، والطرق التجارية^(٤).

(١) شريف: مكة والمدينة ص 162

(٢) ينظر في سورة الروم الآية 1 - 2

(٣) شريف: مكة والمدينة ص 163

(٤) عثمان: الحدود الإسلامية 57/1

على أنه لم يثبت " أن وجهت سفارات خاصة أو وفود إلى العرب (٦٥) "

غير أن الروابط التي نشأت بين بيزنطة والعرب بسبب العلاقات الشخصية التي تم توطيدها، كما شغلت العقيدة في هذا الشأن دوراً مهماً (٦٦).

لهذا يمكن القول بوجه عام إنه لم تكن هناك حكومة عربية واحدة تحكم القبائل والمدن، والقرى في فلسطين والحجاز، بل مشيخات وحكومات مدن تؤدي الجزية للأعراب، جزاء ترك أذاها (٦٧).

فالقبائل التي كانت بالقرب من الحيرة، تبعاً لملك العرب بالحيرة، وما كان في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام، إلا أن هذه التبعية اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكماً ملوكياً يقيّد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها.

وهكذا فقد نجحت الإمبراطورية البيزنطية إلى حد كبير في تأمين حدود الإمبراطورية المتاخمة لشمال شبه الجزيرة العربية بأقصى ما استطاعت، وحافظت على وحدة أراضي الدولة في منطقة من أهم مناطق الإمبراطورية وأقربها إلى الفرس، وذلك بفضل ممارسة كل أساليب السياسة والدبلوماسية التي درجت عليها الإمبراطورية البيزنطية وكما حافظت على استمرار وسير وتأمين الطرق التجارية التي كانت تربط جنوب الجزيرة العربية بشمالها بفضل وجود إمارة الغساسنة القوية، وبفضل سياستها تجاه البحر الأحمر، التي دار محورها حول تحقيق المصالح التجارية للدولة في كل علاقاتها مع دول هذه المنطقة من العالم.

فقد كانت سياسة بيزنطة قائمة على المحافظة على مصالح الإمبراطورية في شتى المجالات، والسير وفقاً لخطة دبلوماسية تقليدية لها أسسها القوية مع تميزها بالنشاط، وسرعة الحركة في عصر جستنيان، الأمر الذي وسّع دائرة التحالف مع شعوب البحر الأحمر - لسد الطريق على التدخل الفارسي هناك، وبذلك ظل البحر الأحمر بأهميته التجارية والاستراتيجية بحيرة رومية، وهذا ما سيفرد له فصل خاص.

(1) بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 62-65

(2) بيغوليفسكي: العرب على حدود بيزنطة وإيران ص 62=65

(3) عثمان: الحدود الإسلامية 71/1